

الشعب والتربية

كتب هذا الكتاب لجميع المهتمين بفهم ما تحاول التربية الحديثة أن تفعله، وهؤلاء يشملون من لهم أطفال بالمدارس ودافعي الضرائب والموظفين وأعضاء مجلس التربية، بل ويدخل فيهم الجل الذي ليس له أطفال وذلك لأنه دائماً ما يوجد النصح لأطفال غيره من الناس ويدخل فيهم أيضاً رجل الأعمال الذي يدرك ما للمدارس من أثر في الحياة الاقتصادية في المجتمع.

كتب هذا الكتاب للمهتمين بالتربية على اختلافهم - كتب للآباء والمدرسين وغيرهم من المواطنين.

والمهتمون بالتربية يدركون إدراكاً واضحاً أن المدارس في تغير مستمر ولكن بعضهم يعرف السبب، والبعض الآخر حائر لا يعرفه، ونحن نريد أن نساعد المواطن الحائر ليعرف كيف تحاول المدارس الجيدة في الوقت الحاضر تربية أطفال اليوم ومواطني الغد.. وهذه المحاولة أمر لم تفكر فيه المدارس منذ أربعين عاماً بل ولم تكن معدة الإعداد الذي يمكنها من ذلك.

ومن المهم أن يدرك الشعب كله حقيقة المدارس باعتبارها نظاماً اجتماعياً ذلك لأن المدارس لم تبني للأطفال ووحدهم، أو لإراحة من لهم أطفال في المجتمع من رجال ونساء، إنما المدارس أداة اجتماعية تستحق أن

يهتم كل مواطن جاد في وطنيته بأساليبها وسياستها، فما تفعله المدارس الآن للأفراد يساعد على تحديد نوع الناس في الجيل القادم فلكل شخص نصيب في هذه النتيجة.

للآباء نصيب في نتائج التربية الحديثة ومن حقهم أن يعرفوا ما تحاول المدارس أن تعمله لأطفالهم، غير أن عليهم أن يعرفوا ما تستطيع المدارس الجيدة أن تعمله إذا ما بذلت كل ما في وسعها، أي كل ما تعرف عمله، وبعض الآباء يضيعون، دون قصد منهم، ما يتاح للمدرسة الحديثة من فرص تعمل فيها أفضل ما تستطيع عمله لأطفالهم وذلك باتجاهاتهم السلبية نحو طرق التدريس، التي لم تعد الطرق التي تعلموا بها عندما كانوا يذهبون إلى المدارس، وكيف يستطيع الطفل أن يحترم مدرساً يهاجمه أبواه وجيرانه الأجلاء الذين لم يألفوا ما طرأ على التربية من تغيرات ثم كيف يتعلم منه؟

وليست التربية الحديثة مدرسا لا يؤمن بالنظام، ولا مدرسة تعلم الأطفال ما يريدون، وليست مسئوليتها الأولى أن تجعل التعليم لذيذاً للأطفال فهي لا تهتم بتعليم مغلف بقشرة من السكر^(١).

(١) تشير هذه العبارة إلى اتجاه متطرف ظهر في ميدان التربية التقدمية في السنوات الأولى من تطورها حيث بالغ بعض المدرسين في تفسير مبدأ احترام الأطفال وقيام المنهج على ميومهم ورغباتهم بأن أطلقوا لهم الحرية الكاملة في اختيار ما يريدون تعلمه مما أدى إلى ظهور أخطاء كثيرة في عملية التدريس مثل: التقليل من دور المدرس في تحية الأطفال والتقليل من شأن الكتب والمعلومات، كما أدى إلى فهم معنى الحرية والنظام، ولعل مثل هؤلاء المدرسين هم السبب في العيوب التي تنسب خطأ إلى بعض الطرق الجديدة في التربية مثل طريقة المشروع، ذلك أن تطبيق هذه الطرق على وجه صحيح لا يتضمن تناقضا بين قيام المدرس بدوره الإيجابي في توجيه التلاميذ واستخدام الكتب واكتساب المعلومات، وبين احترام ميول الأطفال واتخاذها بداية لعملية التعلم.

وإليك مثلاً لا يعتبر تربية حديثة: قررت مدرسة شابة في قرية أن تعلم بطريقة حديثة فأمرت الأطفال أن يأتوا بأنفاس فاكهة فارغة ليصنعوا منها طائرة، وأنفق أطفال الفصل وقتاً طويلاً في صنعها وقد لاحظ هذا أحد الأشخاص فسألها، ماذا يعمل الأطفال؟

فأجابته «إنهم يصنعون طائرة».

فأردف يسأل «ولماذا يصنعون هذه الطائرة؟».

وكانت إجابتها «أنا أؤمن بالتربية الحديثة، وقد قرأت أن الأطفال في المدارس الحديثة يصنعون أشياء».

وفي الحق أن الأطفال في المدرسة الحديثة يصنعون وينشئون أشياء، غير أن المدرس لا يوفر التربية الحديثة أو يحققها حين يطبق ما ابتكرته هذه التربية تطبيقاً أعمى. فماهية التربية الحديثة هي أن يكون لدى المدرس أهداف تربوية عميقة تحقق عن طريق ما يقدمه من تطبيق وممارسة، ولكي يكون المدرس حديثاً في تربيته ينبغي أن يعرف ماذا يفعل، ولماذا يفعله، وعليه أن يتقبل تقويم أعماله وتقديرها في ضوء صلاحيتها.

ومن الخطأ أن نقول إن التربية الحديثة تنجح في كل أمر تحاوله، فالتربية كالطب والجراحة والهندسة والتكنولوجيا قد تقدمت تقدماً هائلاً في الخمس وعشرين سنة الأخيرة وتقدمت في معرفة ما تعمله لكي تحقق نتائج مرغوب فيها، وغير أن ثمة صعوبات وعوائق تحول دون وصول المدارس إلى ما يمكن الوصول إليه، ومن بين هذه الصعوبات وجود أناس يرتابون في كثير مما يجري في المدارس اليوم ويخالف ما كان يحدث في المدارس منذ خمسة وعشرين أو ثلاثين عاماً، وهذا يماثل معارضة الذي يقوم به طبيب

حديث لمريض بالتهاب في الرئة يستخدم فيه عقاقير «السلفا» ذلك لأن طبيب الأسرة كان يعالج هذه المرض في الماضي «بالبخة مكونة من بصل مجروش وترينتينا وكيروسين وخردل»، وهناك آباء وموظفون ومحروون في الصحف بل وبعض المربين وآخرون من أفراد الشعب يحضون المدارس على أن تعود إلى الأوليات، وقد سمعت هذه الصيحة في العقد الثالث من هذا القرن من المعلقين على الحالة الحربية ذوي النوايا الطيبة، وكان يقصد بالأوليات في لغة الأسطول البحري التركيز والاهتمام بالسفن الحربية وإهمال الأشياء الثانوية كالحملات والطائرات التي لم تجرب بعد ويقصد بالأوليات، دائماً حين نتحدث عن الجيش الجنود المشاه أما الطائرات فإنها تلي هؤلاء في الأهمية.

لا يستطيع أحد أن ينكر ما للأوليات من أهمية في ميدان التربية - شأنه شأن غيره من الميادين - ولكن ليس لإنسان أن يدعى أن هذه الأوليات في التربية لم تدرس في معظم المدارس بنفس الطريقة التي ندرسها بها الآن، فرمما كانت بعض المدارس تدرسها على النحو الذي نقوم به الآن، وليس معنى ذلك أن معرفة الأوليات وحدها مهما كانت دقيقة تكفي لضمان قدرة الأفراد على أن يتنافسوا في الحياة وتكفي أيضاً لضمان مهارتهم في معالجة مشكلات العالم في المستقبل، كذلك ليس لإنسان أن يزعم أن المواد الأولية في ميدان التربية هي الأشياء الأساسية الوحيدة في هذا الميدان.

ومع ذلك فإننا نجد أن بعض عناصر الشعب تنادي بالرجوع إلى حجرات الدراسة بجدرانها الأربعة الكئيبة وإلى التربية التي تقوم على الكلام

والكلمات المطبوعة، ويصعب على هؤلاء المدافعين عن التربية التقليدية أن يدركوا أن هذه المطالب لا تؤدي إلى هزيمة ساحقة في ميدان التربية فحسب بل ستؤدي إلى نظام تربوي لا يعد الأطفال على الإطلاق لمطالب المستقبل.

وإذا أمكن وصف التربية الحديثة في عبارة واحدة فقد تكون العبارة التالية، المدارس في تغير لأن الزمن وفهم الأشياء وقد اكتشفت حقائق كثيرة عن كيفية التعلم في الخمسين سنة الأخيرة أكثر مما اكتشف في القرون الطويلة التي سبقت هذه الفترة، والمدارس في تغير، وسيستمر هذا التغير.

ونحن عاجزون عن الرجوع إلى التربية القديمة وعجزنا في هذا لا يقل عن عجزنا عن الرجوع إلى العربية والحصان، وإلى المضخة التي كانت توجد في فناء البيت الخلفي لنزوده بإمام، وإلى مصباح الزيت^(١)، ولن نعود إلى التربية القديمة لأن معرفتنا قد اتسعت وتقدمت، ولا يعني هذا أننا سنقيم التربية على أفكار ومعان متداعية غير ثابتة، فللمدارس طرق تحاول بها أن تجرب أفكارا جديدة وأن تفحصها في ضوء الذوق العام، وأن تضيف إلى

(١) قد يبدو للبعض أن هذا التغير قاصر على الولايات المتحدة إلا أنه من الواضح أن مجتمعا المصري في تغير مستمر فعلى الرغم من وجود العربية الحصان ومصباح الزيت مضخة الماء وما إلى ذلك من الأشياء التي تعتبر من مخلفات الماضي إلا أن هذا التغير شمل ميادين الحياة المختلفة، فظهر في المباني والأدوات المنزلية والأزياء والآلات الزراعية والصناعية وفي وسائل المواصلات وفي النظم المختلفة، ويتمثل هذا التغير في ميدان التربية بشكل ملحوظ في التجارب التربوية المختلفة في المدارس النموذجية ويتمثل أيضاً في الأخذ بالاتجاهات الحديثة في وضع المناهج وفي صنع الوسائل المعينة على التدريس. ومن المؤكد أن أخذ مجتمعا مبدأ التطور والإقبال على الحديد النافع يحول دون التمسك بالظلم القديمة الفاسدة في ميدان التربية وفي غيرها من الميادين.

النواحي الجيدة والرساخة من المدارس القديمة عمليات أفضل، وتطبيقات أحسن، وخدمات قيمة تفيد في إنماء الصغار وسوف تستمر هذه الإضافة، وإن وقعت أخطاء من وقت لآخر، وقد تبذل محاولة أو تطبق فكرة لا تؤدي إلى النتيجة المرجوة فتحذف هذه المحاولة ويستبعد ذلك التطبيق، غير أن الإنسانية في كل مرحلة من مراحل تطبيقها لمعرفة فنية جديدة في الميدان العملي معرضة للخطأ ومدارس اليوم- بل أحسن ما لدينا من مدارس - تحقق أحياناً مع بعض الأفراد ولا يهدف هذا الكتاب إلى الدعوة إلى التسامح مع الفشل أينما وجدناه.

فليس هناك اعتذار عن إخفاق مدرسة في تشخيص مشكلاتها، وفي معالجتها على النحو الصحيح، فمثل هذا الإخفاق أما أن يكون خطأ إنسانياً أو خطأ فنياً وأن نقدم عنه عذراً، فالطبيب الذي يخفق في تشخيص مرض لا يعتذر عن هذا الإخفاق، وعلى الرغم من موت المريض فإننا لا نخرج الطب الحيث لنعود إلى السحر والشعوذة.

يهتم جميع أفراد الشعب بالتربية لأن لكل نصيب فيها وهم الذين يدفعون الضرائب وينبغي أن يعرفوا ما يحصلون عليه مقابل ما يدفعون من مال، وينبغي أن يعرفوا لماذا تتكلف المدارس نفقات باهظة ومن حقهم أن يسألوا أسئلة موجهة واضحة عن التربية، كالأسئلة الآتية.

إذ أنشأنا طائرات في حجرة الدراسة أليس في هذا إضاعة للجهد والوقت، فما الذي تهدف إليه مثل هذه العملية؟

إذا كانت البنات البنون الذين استأجرهم في عمل ما لا يجيدون

التهجي، فخطأ من هذا إن لم يكن خطأ المدرسة؟

إذا لم يكن النظام قد تلاشى بالمدارس، فلماذا لا يحترم الصغار الكبار؟

وإذا كانت الخمسين سنة الأخيرة قد كشفت عن حقائق كثيرة عن التعلم فما الذي يعرفه المدرسون في الحاضر ولم يكن يعرفه المدرس القديم؟ وإذا كانت القراءة والكتابة والحساب مازالت مهمة كما كانت، فلماذا لا تكرر المدارس لها وقت أطول؟

وإذا كانت مدارس الدولة تقوم بعمل طيب فلماذا تنهال عليها الهجمات والانتقادات لأسباب تربوية؟

إن هدف هذا الكتاب هو توضيح بعض أسئلة كهذه.